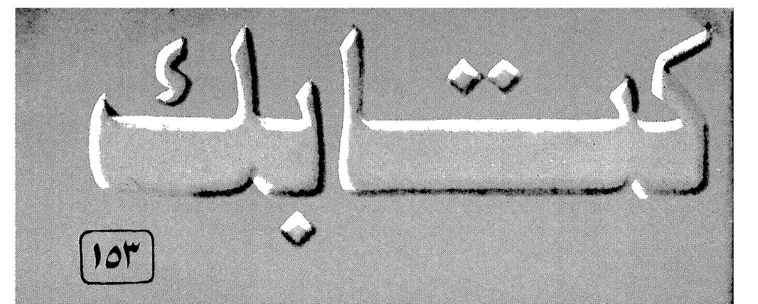


عبد العليم المهدى

الوادى الجديد



دار المعارف

اقرأ ١٥٣

رئيس التحرير أنيس منصور

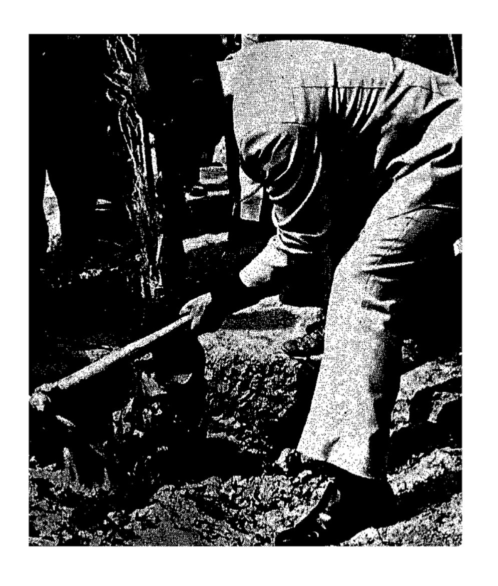
عبد العليم المهدى

الوادى الجديد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



« أنا أنور السادات : فلاح من مصر،
نشــأ وتربّى على ضفاف النيل ،
حيث شهد الإنسان مولد الزمان » .
مطلع كتابه « البحث عن الذات »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حديث شريف

مقدمة :

لا وقت ولا مكان ولا ضرورة للمقدمات . . الوقت كله للرزق . . ولا رزق بغير عمل . . كما فى هذه المعادلة المقدسة التى نزل بها الحديث القدسى :

« عبدى ، حرك يدك أرزقك ».

وفى المعنى نفسه ما جاء به الحديث الشريف :

« إن الله قد جعل رزقى تحت أرنبة رمحى » . .

هذه هى كل المقدمة أو المدخل إلى « كتابك » هذا ، وفى صميم موضوعه يقول النبى ﷺ فى حديث شريف :

« من أعيته المكاسب فعليه بمصر ، وعليه بالجانب الغربى منها » . .

إشارة كأنها أمر ، وكلمة كأنها قضاء !

هدانى الله إلى هذا الحديث ، عندما بدأت علاقة قلمى بالجنة المهجورة فى صحراء مصر الجنوبية ، وهى النصف الجنوبى من صحرائنا الغربية . . أرض هذه الرحلة مع الوادى الجديد من عهد خوفو إلى عهد السادات .

والسادات يعتز دائماً بأننا فى مصر نستند إلى حضارة تمتد فى عمق التاريخ إلى سبعة آلاف عام . منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهو يعلن هذا فى كل مناسبة تستحق إعلان أصالة شعب مصر . . ومصر كما فى الحديث الشريف كنانة الله فى أرضه . . أعطاها وبسخاء موارد طبيعية وثروة بشرية لو قامت إلى هذه الموارد بعزم وجهد كل إنسان لكانت على قدم أعظم الأمم التى تتصارع من أجل الحصول على مصر ، ومصر بثورتها الكبرى فى عام ١٩٥٢ قد قامت بتحطيم كل قيد للتبعية ، وأكدت مصر ذاتها بثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١، وملكت بكل العزة زمام أمرها ، فصنعت النصر المعجزة فى أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم أنجب هذا النصر مبادرة السلام التاريخية فى نوفمبر ١٩٧٧ ، هذه المبادرة التى قام بها الرئيس محمد أنور السادات ، مؤكدا بها رسالة مصر الحضارية ، وهى فى عالمنا المعاصر مبادرة لا تخص مصر وحدها ، بل تخص كل إنسان فى كل مكان .

وتجسيداً لرسالة السلام المصرية – يقود الرئيس شعبه الأصيل إلى الثورة الخضراء ، وهدفها الأسمى هو تحقيق السلام الاجتماعى ، على أرض الدعوة إلى السلام العالمى .

من أول يوم تولى فيه السادات مقاليد مصر ، وهو يدعو إلى أن تكون مصر دولة العلم والإيمان ، وبهما كان انتصار مصر فى العاشر من

رمضان ، وتحت أضواء هذا الشعار سطعت مبادرة السلام ، فأضاءت العالم كله .

والسؤال بعد ذلك : هل تستطيع مصر أن تحمل أعباء رسالة السلام فى زحام المطامع والشهوات التى تتلمظ على مصر نقطة الانطلاق إلى الوطن العربى وإلى القارة العذراء . . أفريقيا ؟ . .

الجواب بلا تردد : نعم ، وبأعرض الأصوات . . وليس أمام مصر الحرة خيار . . بعد أن تحررت إرادتها وملكت زمام أمرها !

الجواب فى صحارى مصر . . وفى مياه مصر . . وفى كنوز مصر . . وفى شمس مصر . . كل ما نحتاج إليه الآن – كما يقول الرئيس السادات مفجر الثورة الخضراء – هو جهد الإنسان .

وهل يملك إنسان مصر أن يتقاعس لحظة واحدة عن الاندفاع بكل قوته إلى بناء نفسه وبناء بلده عالية تناطح السحاب ؟

الثورة الخضراء هى الطريق (الوحيدة) إلى مصر العظمى . . فقد حدد الرئيس القائد سنة ٢٠٠٠ م موعداً لتجديد بناء مصر باكتشاف كنوزها فوق الرمال وتحت الماء . . بتحويل اللون الأصفر فى أرض مصر إلى اللون الأخضر ، باستخراج ماء مصر من جوف الصحراء ،

وباستخراج بترول مصر من الصحراء ومن تحت الماء ، وقيام مداخن المصانع من قلب الحقول الخضراء !

بذلك وحده نبنى مصر ، ونبنى قوة مصر ، ونرسى قواعد السلام الاجتماعى فى مصر ، ونجعلها حصنا لسلام العالم . . وبالله التوفيق .

عبد العليم المهدى

الثورة الخضراء أيقظت التاريخ

شاء ربى أن يكون الوادى الجديد موضوع قدرى فى حياتى الصحفية . . عندما رفعت صوتى عام ١٩٥٤ منادياً بالزحف على واحات مصر ذات التاريخ الطويل مع حضارات الفراعنة . . ومعارك الغزاة من الفرس والرومان الطامعين فى خيرات مصر ، وهذه المنطقة بالذات ، وقد أطلق الفراعنة على عاصمتها « مدينة المحراث » ذات الحدائق الواسعة والأرض التى كانت تمون مصر بالقمح فى السنين العجاف . . ومن أجل ذلك سميت مصر أيام احتلال الرومان « سلة الخبز الرومانية » !

الثورة الخضراء تريدها « سلة الخبز المصرية » .

لكن ما حكاية هذه الأرض مع التاريخ ؟

إنها بصمات الحضارة الفرعونية من عهد خوفو وعلى امتداد عهد الأسرات . . كانت هذه الواحات بخيراتها أكبر إغراء للغزاة . . وكانت أرض الواحات أول مقبرة للغزاة !

ثم جاء عصر الشهداء المسيحى فى القرن الثانى الميلادى ، ليسجل آثار أقدام ثمانية ملايين مصرى هاجروا بدينهم هرباً من بطش الرومان ، فحوّلوا هذه الواحات إلى جنات . .

الثورة الخضراء أيقظت التاريخ . . والكلمة الآن للتاريخ :

باب غزو مصر

سجل الرحالة الفرعونى فى «خوفوحر» منذ سبعة آلاف عام على جدران مقبرته فى أسوان هذه الحقيقة :

* سلكت فى إحدى رحلاتى إلى السودان درب الواحات . . إنه يصل بين طيبة والواحات الخارجة . . وهو يتفرع منها إلى شمالى أفريقيا . . ثم هو يستقيم إلى الجنوب حتى دارفور . . هذه الواحات تغرى بالهجوم على مصر من الغرب . . هذه الواحات عامرة بالخيرات وكم حاولت قبائل « التحنو» سكان ليبيا غزو مصر من باب الواحات فردتهم قوات مصر !

ثم جاءت من بعدهم قبائل « التمحو» – قدماء الجرمان – بعد احتلالهم ليبيا – فقامت إليهم وهزمتهم قوات مصر . لكنهم استمروا فى غاراتهم على هذه الواحات . . حتى تزوج منهم الملك خوفو – صاحب الهرم الأكبر – فكفوا عن غزو مصر.

كانت هذه الواحات – كما سجل الرحالة الفرعونى المؤرخ – باباً لغزو مصر . ولما كان خوفو مشغولاً ببناء الهرم الأكبر فقد تزوج بالأميرة الجرمانية ، فأصبحت أما لفروع من فروع البيت المالك . .

كانت هذه الحادثة أول مصاهرة ديبلوماسية عرفها التاريخ . .

ومايزال رسم الأميرة الجرمانية على جدار مقبرة ابنتها الملكة «مرسو عنخ» الثانية بجوار أهرام الجيزة . . ويقول عنها بعض المؤرخين خطأ : إنها أميرة ليبية ، ولكن صورتها الملونة توضح زرقة عينيها وشعرها الذهبي . .

* كان ذلك فى عهد الأسرة الأولى ، وفى عهد الأسرة الخامسة اشتد ضغط قبائل « التمحو» على بدو « التحنو» فى ليبيا ، فنزح سكان ليبيا الأصليون إلى الواحات ، فردتهم قوات الملك « ساحورع » وكسبت منهم الغنائم الكثيرة ، وأسرت جميع الرجال .

« وفى عهد الأسرة الثانية عشرة ، قرر محتلو ليبيا من قدامى الجرمان غزو مصر . فقد تقادم العهد بأول مصاهرة ديبلوماسية . . وحسبت قبائل « التمحو» أن مصر يمكن غزوها من هذا الباب . . ولكن أمنمحعت الأول أخلف ظنهم ، ثم أقام الحصون على مداخل مصر الغربية . .

وفى قصة « سنوحى » إشارة إلى أن أمنمحعت الأول قد مات وابنه الأكبر فى معركة طاحنة دفاعاً عن الواحات الجنوبية .

* وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة . قسمت الصحراء الغربية المصرية إلى شمالية عاصمتها سيوة – وجنوبية عاصمتها الخارجة التى سميت بالواحة العظمى – وجعلوا الإقليمين خاضعين لحاكم أبيدوس . . وفى مقابر طيبة صور لزعماء الواحات وهم يقدمون للملك هدايا من العنب والنبيذ والجلود وأوعية من الخرز وسعف النخيل .

والعنب – قبل أن ننسى – ليس له أثر فى الواحات الآن ، مع أنه كان السبب فى إسناد حكم الواحات إلى أحد أبنائها واسمه «أمنحوتب» – تيمناً باسم إله الطب – وهو من مواليد الواحات البحرية ، حيث ترك فيها قبره المنقوشة عليه صور أتباعه وهم يقدمون له تلالاً ضخمة من القمح ، وأوانى كبيرة من النبيذ .

* ثم كان عهد الأسرة التاسعة عشرة . . عهد الحروب الضروس فى هذه الواحات فى أيام الملك « هرنبتاح » لغزت قبائل التمحو بجنود من بدو التحنو الواحات البحرية والفرافرة ، لتقدموا إلى الداخلة ، وتجاوزوا الواحة الخارجة المحصنة إلى النيل ، فدمرتهم القوات المصرية التى خرجت فى هجوم مضاد من الواحات الخارجة . . ولقنت قوات مصر الغزاة درساً قاسياً . .

[أول حرب مع أوربا . .]

* لكنهم تحركوا للثأر فى عهد رمسيس الثالث مستعينين بقوات جمعها قدماء الجرمان من أوربا :

بدأ الهجوم من البحر بأسطول كبير تغطيةً لهجوم برى على الواحات ، فتولى أسطول مصر تحطيم الهجوم البحرى ، وانفردت قوات مصر المرابطة فى الواحات بدق أعناق المهاجمين برًّا . .

وكانت هذه المعركة هى أول لقاء عسكرى بين مصر وأوربا . . وقد احتفل رمسيس الثالث بهذا النصر كما تحكى الصور الباقية على

جدران معابد طيبة ، حيث يقدم زعماء الواحات لفرعون المنتصر عصير الأعناب ليوزع على الشعب فى عيد النصر.

* كان استعباد قدماء الجرمانيين لسكان ليبيا الأصليين سبباً فى دخول الليبيين إلى الواحات الجنوبية لاجئين — هذه المرة — لا غزاة . . ثم أصبحوا رعايا مصريين ، وانخرطوا فى جيش فرعون . . حتى ترقى واحد منهم .هو « شيشنق الأول » فأعلن ملكاً على مصر عام ٩٥٠ ق . م . . وهو من مواليد الخارجة . . وقد عنى بإعادة تنظيم الحياة فى الواحات حتى استأنفت حياة السلام والرخاء . . بعد الحروب الطويلة .

على جدران معبد أوسركون فى الزقازيق محفورة هذه العبارة :

الفخر للواحات الداخلة والخارجة بأنها ملك لآمون . . حدائقها ونبيذها وحقولها المترامية الأطراف كلها ملك لآمون !

الشعب يغلب فرعون . .

* فجأة وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين ، أصبحت الواحات الخارجة منفًى للمجرمين السياسيين – تماماً كما كانت قبل ثورة التصحيح فى (١٥ مايو ١٩٧١) وبين آثار طيبة العريقة صور من كفاح شعب مصر العريق ضد الاستبداد ! لقد ثار الشعب فى طيبة ضد أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين لأنه نفى إلى الخارجة زعماء يقودون حركة مقاومة ضد استبداد هذا الملك ، ولم يهدأ الشعب حتى عاد الزعماء من الخارجة . . ووقع الملك تعهداً مكتوباً بأنه لن يعود إلى نفى الزعماء أبداً .

* ابتسمت الحياة لعهد سلام فى الواحات الجنوبية على أيام الأسرة الثانية والعشرين . . فاتسعت الرقعة الخضراء . . وتضاعف عدد السكان . . وبدأت تقوم الحضارة . .

فأقام أحمس الثانى معبد (حبت) فى الواحة الخارجة ، وأطلق هذا الملك عليها اسم الواحة العظمى .

الأهم هو أن هذا المعبد قد أقيم فى موقعه الحالى على مسافة قريبة من الخارجة وسط مدينة تسمى «مدينة المحراث» فبماذا يمكن أن نفسر قيام حضارة فى مدينة المحراث ؟

* فى القرن السابع قبل الميلاد . . دار الفلك دورته . . فقد تعرضت مصر للغزو الآشورى ، وأحرق الغزاة طيبة وأشاعوا فيها الفوضى . .

فتحول طريق التجارة بين السودان والبحر المتوسط عن مسيرته إلى درب الأربعين بين دارفور والواحات الخارجة فتضاعف الرخاء فى المنطقة ، وأثرى كهنة آمون فى سيوة . . وكان ثراء هؤلاء الكهنة وفقرهم مقياس الشدة والرخاء فى واحات مصر.

هنا يرقد الغزاة

* فى القرن السادس قبل الميلاد – كانت غزوة الفرس لمصر ، فأعادوا تعمير طيبة ، واتخذها قمبيز بن كسرى مقر الحكم . . وعادت تجارة السودان مع البحر المتوسط مسيرتها الأولى . . وانقطعت القوافل من درب الأربعين . . وأحس كهنة آمون بضيق فى الأرزاق . . فإن الغزاة يدوسون أرض مصر ويهلكون الحرث والنسل !

وتفجرت المقاومة المصرية للغاصبين على لسان كهنة آمون الذين تنبئوا وأعلنوا أن حكم الفرس لمصر لن يطول ! وحياة قائدهم قمبيز نفسه سوف تنتهى بكارثة ! هكذا أراد آمون !

استشاط قمبيز غضباً عندما وصلته هذه النبوءة التى تتردد على ألسنة العامة ، فقرر أن يزحف على سيوة من طيبة – الأقصر – لينتقم من هؤلاء الكهنة ، ويحرق ويهدم معبدهم ويذبح آمون أيضاً !

وسار قمبيز على الفور على رأس جيش من تسعين ألف مقاتل بخيلهم وجمالهم ، فوصلوا الواحة الخارجة فى عشرة أيام ، وأقاموا استعداداً لمواصلة الزحف . .

أقام قمبيز فى مدينة المحراث (الخارجة) وعسكر جيشه على امتداد ٩٠ كيلو متر فى سهل بيريز – ونسميها خطأ باريس الآن – وهو اسم بيريز

أركان حرب قمبيز ، وقد أقام فى هذه الواحة وأسماها باسمه حتى يتم تموين الجيش ويستريح ، حتى صدرت إليه الأوامر بالتحرك لمسيرة خمسة عشر يوماً حتى سيوة .

واتخذ قمبيز من أهل الخارجة أدلاء من قصاصى الأثر ليسيروا فى طليعة الجيش إلى سيوة . . إلى الضربة القاصمة لظهر آمون وكهنته ومعبده ! . . .

وتقدم الأدلاء الجيش . . فهل وصل هذا الجيش إلى سيوة ؟ يجيب عن ذلك هيرودوت المؤرخ الإغريقى بقوله :

* سئل كهنة آمون عن مصير تسعين ألف مقاتل فارسى جاءوا ليقتلوهم ويحرقوا معبدهم ؟ . .

أجاب الكهنة : لقد أصابتهم لعنة آمون ! لم يصل جندى منهم إلينا هنا فى واحة آمون ولم يعد منهم جندى إلى الخارجة حدائق آمون .

ويواصل هيرودوت الجواب :

لقد ضللهم أدلاء الخارجة ، وقادوا هذا الجيش العرمرم إلى شاطئ بحر الرمال ، وهبت عاصفة عاتية راعدة والجيش مقبل يأكل ويستريح ، واشتدت العاصفة واستمرت عدة أيام كان الجيش خلالها يدور حول نفسه داخل ثورة الرمال ، حتى نَفِدت الأقوات . . وغرق معظم الجيش فى بحر الرمال . . وأكل الباقون بعضهم بعضا بالقرعة . . ولم تهدأ العاصفة حتى كان الجيش كله مستقرّاً فى جوف بحر الرمال بين

الخارجة وسيوة . . وجن قمبيز ودفن مع جيشه !

وهناك بعوث أثرية تحاول الوصول الآن إلى القبر الكبير . . ذلك الذى أوشك أن يكتشف ليؤكد من جديد أن مصر دائماً مقبرة الغزاة !

* ثم أراد ملك الفرس الجديد داريوس أن يصلح ما أفسده أبوه من علاقات بأهل مصر ، فأسرع داريوس بإصلاح ما خربه جيش قمبيز فى الواحات ، وخاصة معبد حيبت فى شمالى الخارجة ومايزال هذا المعبد قائماً يتحدث إلى الدنيا بآثار الفراعنة .. والفرس .. والرومان .. محفور على جدران هذا المعبد أن مدينة المحراث كانت قائمة وسط أرض خضراء واسعة تقدر بمليون فدان . ذلك بجوار تنظيم الحكم المحلى فى الواحات من عهد الأسرات .

الإسكندر يركع

* رفض المصريون كل مهادنة مع الفرس واستقبلوا الإسكندر المقدونى الذى علم بما عرض له كهنة آمون. فذهب إليهم فور وصوله ، وركع فى معبد آمون ، وباركه الكهنة فالتمس منهم أن يعتبروه ابناً لآمون ، لكنهم اعتذروا بلباقة ، وقالوا فى دعائهم : امنح رضاك يا آمون ابننا الإسكندر !

وطلب الإسكندر إلى صديقه « داريوس » أن يدفنه بعد موته إلى جوار أبيه آمون ، وبعد موته نقلت جثته إلى منف فى طريقها إلى سيوة حيث يدفن فى معبد آمون ، ولكن بطليموس الأول رأى فى دفن الإسكندر فى معبد آمون تحدياً له وهو – أى بطليموس – الإمبراطور المعبود فأصر على دفنه فى الإسكندرية .

فى عام ٧٠ الميلادى . .

* وفى القرن الميلادى الأول . . وجه البطالسة – محتلو مصر – عنايتهم إلى الواحات ، استغلوا أرضها الخصبة على أوسع نطاق . . سهروا على تأمين طريق التجارة فى درب الأربعين استرضاء لكهنة آمون !

وطريق درب الأربعين هو الموصل فيما بين الواحة الخارجة ودارفور ، وتقطعه القوافل فى ٤٠ يوماً ، ولذلك سمى درب الأربعين .

وحافظ البطالسة على اسم الخارجة على أنها الواحة العظمى إشارة إلى خيراتها الموفورة ومياهها الغزيرة وكرومها وغلالها التى كانت أغلى ما يباع فى روما . . واتخذها الإمبراطور مخزناً للقمح والفواكه التى كانت تصدر إلى روما . .

من أجل ذلك أقام الرومان المعابد وأبراج المراقبة ومعسكرات الحاميات ، وتولى الجيش الرومانى تطهير العيون والآبار التى سبق أن حفرها الفراعنة . . وأطلقوا على هذه الآبار اسم الآبار الرومانية ، وزرع البطالسة فى هذه المنطقة مليون فدان . كان ذلك فى عام ٧٠ الميلادى .

هجرة ٨ ملايين

وفى ختام القرن الميلادى الأول – بدأ الصراع الرهيب بين شعب مصر وحكومة الاحتلال الرومانية . .

الحاكم الأجنبى يريد لشعب مصر المسيحى أن يعبد الإمبراطور .

الشعب المؤمن يعلن فى إصرار أنه لا يعبد إلا الله الذى يدعوه إلى عبادته السيد المسيح عليه السلام .

وبدأت المعارك الرهيبة بين جيش الاحتلال وبين الشعب . . وسقط فى هذه المعارك كثير من الشهداء دفاعاً عن دينهم ، وسمى ذلك العصر عصر الشهداء . . ولم تنته المعارك العقائدية إلا بعد استشهاد القديسة كاترين فى الإسكندرية . . ثم نفى الزعيمين الدينيين اثنا سيوس ونسطوريوس إلى الواحات الجنوبية . . وكان ذلك موعد الهجرة الكبرى .

كان اضطهاد الرومان للدين المسيحى فى داخل الوادى ، خيراً كالسيل المتدفق على الواحات فى مواكب ملايين المهاجرين فى سبيل الله ، فقد هاجر خلف الزعيمين الدينيين ما يقرب من ثمانية ملايين من المصريين فراراً بدينهم من بطش الرومان

العصر الذهبى

* فى عصر الشهداء دخلت المسيحية الحق أرض الواحات . . واتحد المهاجرون ومن نزلوا عليهم دنيا ودينا . . فاستكملت الواحات أقصى عدد يمكنه أن تستوعبه من السكان – ثمانية ملايين نسمة – غير سكان الواحات الأصليين . .

وأقامت هذه الملايين تعبد الله وتبنى الحياة . . كانت فلاحة الأرض عملاً دينيًا . .

وكان هنا – على أرض الوادى الجديد الآن – اكتفاء ذاتى من الغذاء لهذه الملايين ، بالإضافة إلى ما ينهبه جيش الاحتلال الرومانى ، وما تمد به الواحات سكان وادى النيل من قمح فى أيام الجفاف . . ويمكن القول بأن عصر الشهداء المسيحى كان العصر الذهبى للإنتاج الزراعى والحيوانى فى الواحات .

دورة الفلك

ودار الفلك دورته . . وساد الأمن ربوع مصر بدخول الإسلام ، كان دخول الإسلام فى مصر إيذاناً بعودة المهاجرين إلى وادى النيل مرة أخرى . . وكان الجيش العربى الإسلامى الفاتح قادماً من الصحراء ، فلم ينظر إلى الواحات ، وكان حسبه أن يستريح على ضفاف النيل ، حتى يستجمع قواه لغزو الأندلس .

وهكذا بدأت الواحات تتعرض لما كتبه الرحالة العالم العربى أبو عبد الله محمد الإدريسى :

« لم يمض على الواحات الجنوبية أكثر من خمسة قرون بعد الميلاد حتى هجرها المصريون ، وحتى الواحات الصغيرة هجرها أهلوها وأقاموا فى الواحات الكبيرة ، وفى كل يوم ينقص عدد السكان .

لقد رأت هذه الواحات الجنوبية عصوراً زاهرة كانت خلالها جنات ثم رحل أهلوها . . فأجدب المرعى . . وجف الفرع . . وجفت الخضرة . . وهلع الناس هناك من الجوع ، فهرعوا إلى داخل بلاد مصر ، بحثاً عن العمل والطعام !

وجاء البشير

فى القرن الثانى من الميلاد كان يقطن ويسعى على هذه الأرض الطيبة ثمانية ملايين مواطن ويعيشون أكرم حياة . .

ترى كيف تكون الحياة ؟ وكم يكون التعداد فى ختام القرن العشرين ؟ . . لا مناص من هجرة كريمة إلى أرض كريمة تختزن فى جوفها من الكنوز ما ينجو بمصر من كل أزمة وكل ضائقة ! .

قال عليه الصلاة والسلام :

« من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها » .

وليس من شك فى أن الضغوط والمطامع والحروب قد حرمتنا كثيراً من المكاسب وهذا الجانب الغربى فى مصر إلى جوارنا غير بعيد . . ويخطئ من يظن أننا نسينا الحكمة فى هذا الحديث الشريف . . فنحن أعرف الناس بمواقع الخير فى بلادنا .

ولقد دعانا الرئيس القائد قائلاً :

« تعالوا نكتشف كنوز مصر فوق الرمال وتحت الماء ! » .

وقام بجولته التاريخية على اتساع رقعة مصر ، وأعلن من أرض التاريخ – الوادى الجديد – الثورة الخضراء . . لقد بدأ هذه الثورة من سيناء ، أرض النصر فى حرب السلام ، ثم ذهب إلى القدس يعلن رسالة السلام ، ثم طار إلى الوادى الجديد يعلن الثورة الخضراء . .

تحقيقاً لبرنامجه للعمل الوطنى ، وخطته فى ورقة أكتوبر لبناء مستقبل مصر .

فلنكن معه بقلوب وعقول مفتوحة لقوله :

« لقد تصورت مصر سنة ٢٠٠٠ ، ووضعت لذلك برنامجاً مدروساً . . واتجهت إلى زراعة الصحراء . . وفتحت أبواب الاستثمار لرأس المال العربى والأجنبى مع كل الضمانات التى تقدمها دولة متحضرة . . ولكنى أعترف – وليس هذا تواضعاً منى – أن مبادرتى هذه أتت بنتائج أكبر بكثير جدًّا مما تصورت . . إن عالمنا من أوله إلى آخره قد تغير أسلوبه فى النظر إلى الأشياء . . وسوف يؤدى ذلك إلى تغير شامل فى العلاقات الإنسانية . . ولسوف يتحقق الرخاء فى الشرق الأوسط . . وسوف تكون أجيالنا أحسن حالاً منا » .

ثم يقول بيقين الناصح الأمين :

« يجب أن نجند كل قوانا لبناء وتعمير مصر . . صحيح أن معركتنا من أجل البناء صعبة . . لكنها فى ظل السلام والأمان سوف تكون أروع وأبقى »

القانون ٦٦ عمره ١٩٠٠ سنة م

محفور على وجهة معبد حبت سنة ٧٨ م

هناك فى وجهة معبد « حبت » الذى أقامه الفراعنة فى فجر التاريخ وسط مدينة المحراث بالواحة الخارجة – هناك يجد الزوار وثيقة عمرانية يرجع تاريخها إلى سنة ٧٨ ميلادية .

فى أيام حكم الإمبراطور جلبا الرومانى – كان حاكم الخارجة الرومانى اسمه : طيبرياس جولياس إسكندر . . تلقى عدة شكاوى من أهل الواحات ضد الجند والضباط الرومان . فأمر الحاكم بنقش القانون ٦٦ على وجهة معبد حبت الفرعونى . . سمى القانون ٦٦ لأنه يتكون من ٦٦ سطراً تنص على :

منع أسباب الشكوى ، وإقامة العدالة ، ونظام تعيين محصلى الضرائب ، وطريقة دفع الديون ، والجرائم التى يعاقب عليها القانون ، وطريقة التملك ، والوراثة ، وحق المرأة فى الميراث ، ونظام الإيجارات ، والخدمة العسكرية .

وحرم القانون الرشوة ، وقضى بمعاقبة مقدمى البلاغات الكاذبة . وحرم إثقال كاهل الأهالى بالضرائب ، وأمر القانون برد كل مال مغتصب لصاحبه ، وحرم جباية الضرائب إلا فى موسم الفيضان .

ويضيف القانون ٦٦ إلى ذلك :

إن بعض الموظفين يغلب عليهم الطمع والاستبداد بدون خجل أو حياء اعتمادا على ما لديهم من قوة وسلطة يستخدمونها فى ابتزاز أموال الناس فى هذه المنطقة . وذلك مخالف لقانون مكسيموس ، وكل مخالف يدفع عشرة أضعاف ما اغتصب ، وللمبلِّغ عنه أربعة أضعاف . وللسكان الحق فى الحضور إلى ديوان المحاسبة فى بحر ٤ شهور ، وأن يقابلوا « باسليدس » معتوق قيصر ، حتى إذا كانت هناك مخالفة قانونية أمرنا بالجزاء — ا . هـ .

نقدم هذه الوثيقة لا للتدليل على عدالة الحاكم الأجنبى ، فذلك أمر مشكوك فيه ، من حيث إنه لا يستقيم عدل واستعباد . . ولكن هذه الوثيقة أسطع دليل على أن مدينة المحراث والواحة الخارجة وما حولها كانت عامرة بالحياة والحركة والعمل ومقاومة الشعب لضغوط جيش الاحتلال الذى كان يعيث فساداً فى المنطقة ، واضطرته المقاومة إلى أن يلتزم بذلك الإعلان نظاما لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وتحديداً لموعد جمع الضرائب ، ومنعاً للرشوة ، وحق المرأة فى الميراث ، وحق الشعب أن يتجه إلى ديوان المحاسبة !

لقد كانت المنطقة ماتزال عامرة بالمهاجرين بدينهم ، والذين أحسنوا معاملة الأرض الطيبة ، فقدمت إليهم الخير والرخاء !

غزوة السادات

للوادى الجديد بعد القدس

بالقدم الثابتة نفسها والإرادة الواعية التى طار بها الرئيس السادات إلى القدس معلناً رسالة السلام باسم شعب مصر– طار فى سماء الوادى الجديد ، ليعلن فى عاصمته « الخارجة » أن شعب مصر كله يجب أن يبدأ ثورة ثالثة فى الوادى الجديد بعد (ثورة ٢٣ يوليو) و (ثورة ١٥ مايو) على طريق بناء رخاء مصر وقوة مصر.

ثم قال الرئيس القائد : إن كل الدراسات والبحوث العلمية قد أكدت أن الإمكانات الموجودة حاليا فى الوادى الجديد كفيلة بحل مشاكل الوادى القديم . . والمطلوب فقط هو جهد الإنسان .

ثم انتقل إلى واحة الفرافرة بالقرب من حدودنا الغربية ليعطى من هناك إشارة البدء فى زراعة ٧٥٠ ألف فدان مستصلحة وموفورة بالمياه ثم قال : إن بئر الماء عندى أهم من بئر بترول ! .

وعلى خطى الزعيم القائد الذى فجر الثورة الخضراء نمضى فى هذا التحقيق :

الأرض والماء

إن الوادى الجديد هو ابن الثورة البكر فى ميدان التحول الاجتماعى إلى الأمن والرخاء ابتداء بتحرير لقمة العيش . .

٦ ملايين فدان صالحة للزراعة بأقل تكلفة . . فوق أكبر خزان فى العالم للمياه الجوفية التى تفوق عذوبتها عذوبة ماء النيل ، وهذا الخزان كشفته الثورة بالتنقيب عن الماء بآلات التنقيب عن البترول . . حفارات ميكانيكية ذات مثاقيب مصنوعة من الماس . . أطلقت الماء من عمق ٧ و ٨ و ١٠ آلاف قدم فى الأعماق ، ليرتفع فوق الأرض ٣٥ قدماً ، ولتعطى البئر الواحدة ٣٥ ألف متر مكعب فى اليوم . . رأيت ذلك بعينى رأسى فى مطلع الستينيات .

ثم إمكانات التعدين واستخراج الحديد والفحم والفوسفات وغيرها مما يعمر به جوف صحراواتنا عامة والجنوبية خاصة . . فالمقطوع به أن هذه المنطقة تعيش أيضاً على بحيرة بترول !

قبل ذلك يُجمع الخبراء والعلماء على أن الزحف على الصحراء هو السبيل (الوحيدة) أمام شعب مصر ليبنى مصر الحديثة عام ٢٠٠٠ فى متنفس يستوعب كل الكثافة البشرية الناجمة عن الانفجار السكانى على الشريط الأخضر على جانبى النيل .

لقد بذلت (ثورة ٢٣ يوليو) قصارى الجهد العلمى حتى اكتشفت هذه الثروة المبددة فى الصحراء ، فقامت إليها بالعزم تريد تحقيق حلم مصر فى حياة راضية تنقذ الناس من المعاناة . .

فى ٢٥ من ديسمبر من عام ١٩٥٨ أعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى يوم عيد النصر ببورسعيد أننا سننشئ وادياً جديداً فى الصحراء الغربية والجنوبية محاذياً لوادى النيل . .

وتسابقت صحافتنا وصحافة العالم إلى هذه الصحراء تحيطها بضجة إعلامية واجهتها إذاعة إسرائيل وصحفها بحملة شرسة من الدعاية المضادة التى تناولت – ولا فخر – كاتب هذه السطور ، بما يليق وما لا يليق من السخرية والشتائم ؛ لأننى كنت – ولا فخر أيضاً – أول داعية إلى غزو تلك الجنة المهجورة فى صحرائنا الجنوبية . .

والسؤال هنا : كيف ومتى بدأت دعوتى لزراعة هذه المنطقة وتعميرها . . وما صلتى بهذا المشروع منذ ولادته حتى أصبح فى عمر العام السابع . . يمشى بالأمل ويتحرك بالخير الذى أوشكت بشائره أن تصل القاهرة ؟ . ثم . . كيف أصيب هذا الطفل بالكساح المفاجئ نتيجة ضربة من الخلف أصابت عموده الفقرى ؟ . .

الجنة المهجورة

قبل الجواب عن هذين السؤالين أرانى مضطرا لسرد حكايتى مع الوادى الجديد ، وقد عايشته وكتبت عنه فكرة ودعوة مخلصة يؤيدها الدفع الثورى الذى أقام فى الصحراء الغربية مديرية التحرير . . قامت فكرتى ودعوتى إلى الأفق العريض فى الوادى الجديد قبل أن يسمى بهذا الاسم ، وكانت المحافظة باسم محافظة الصحراء الجنوبية التابعة لسلاح الحدود فى ذلك الحين ، وكنت أول صحفى مصرى زار الواحات الجنوبية فى فجر الثورة ، وخرجت من هذه الزيارة بكتاب « الجنة المهجورة فى صحراء مصر الجنوبية » رافعاً شعار الثورة : « تحرير لقمة العيش هدف (أساسى) من أهداف ثورتنا الكبرى » .

يستطيع أكثر من رائد مصرى أو أجنبى قديم أو حديث — أن يقول : إنه كتب عن صحراء مصر الجنوبية وصفاً جغرافيا ، أو تاريخيًّا ، أو سياحيًّا . . ولكنى أستطيع — ولا فخر — أن أدعى أنه لم يسبقنى أحد فى الدعوة العريضة إلى زراعة هذه المنطقة وتعميرها ، واستغلال معادنها وبترولها ، وفحمها وحديدها ، وأرضها الخصبة ، ومياهها الجوفية ، فى إنشاء الوجه الثالث لمصر فى صحرائها الغربية الشمالية — مطروح — والجنوبية — الوادى الجديد — حيث ادخر الله لمصر متنفساً للحياة

والتوسع العمرانى بدلاً من التكدس الخانق فوق الرقعة الزراعية الضيقة فى الدلتا أو على شاطئ النيل فى الصعيد !

وقد سجلت هذه الدعوة سبعة تحقيقات صحفية نشرتها فى « الأهرام » عام ١٩٥٥ واحتواها كتابى « الجنة المهجورة » الصادر عام ١٩٥٦ ، وقد أشرف على طبعه الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ، عندما كان يشغل نائب مدير سلاح الحدود ، وكان رأسه يمتلئ بخواطر غزو الصحراء ، بعد أن تحررت مصر بثورة ٢٣ يوليو .

وأذكر للحقيقة والتاريخ أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أول قارئ لهذا الكتاب « الجنة المهجورة » ، وقد شكر لسلاح الحدود طباعته لهذا الكتاب ، وكتب لى : إنه يقدر جهدى فى إعداد هذا الكتاب ، وحدثنى بأنه قد أمر سلاح المهندسين بأن يضع – على أساس هذا الكتاب – أول خطة لاستجابة دعوتى ، وفى ديسمبر من عام ١٩٥٨ أعلن الرجل أن الثورة ستنشئ وادياً جديداً فى الصحراء الجنوبية . . فقمت أصلى داعياً الله أن ينجح هذا المشروع .

وكانت البداية فى اتجاه العدسات وجرى الصحافة إلى حيث أشار عبد الناصر . . إلى الواحات الخارجة والداخلة وسيوة والبحرية . . وأطلق الصحفيون لخيالهم العنان ، وكان السبق يومها فى الحديث عن

الوادى الجديد كما لو كان قد تمت زراعته حتى أغرق بحاصلاته وادى النيل ، وزاد على الحبوب اللحوم ، وحددت إحدى الصحف يومها ثمن الديك الرومى الكبير من الوادى بعشرين قرشاً ! إلى آخر التهاويل التى اتخذت منها إذاعة إسرائيل مادة للسخرية والتنديد والتشهير !

وفجأة أصدر عبد الناصر أوامره إلى الرقابة أن تمتنع الصحف عن نشر أى نبأ أو موضوع عن المشروع حتى ينتهى بحثه ويخرج إلى حيز التنفيذ . . ولم يستثن الرئيس الراحل أحدا من هذا القرار غير كاتب هذه السطور . . فقد تلقيت تكليفاً بأن أعيد نشر ما كتبته عام ١٩٥٥ فى ديسمبر ١٩٥٨ فى « الأهرام » أيضاً . . ورفعت الأقلام نهائيًّا عن الكتابة عن الوادى الجديد بعد إعادة نشر كتابى « الجنة المهجورة » وسلسلة من التحقيقات الصحفية بلا تغيير سوى دعوتى إلى « الجنة المهجورة » قد أصبحت مشروعاً تقوم عليه هيئة عامة باسم هيئة تعمير الصحارى التى أنشأها وعمل بها قادة سلاح المهندسين الذين انتشروا فى المنطقة من شاطئ البحر المتوسط حتى حدود السودان ، يبحثون عن حقائق إمكانات الصحراء فى صنع الرخاء . . ومعنى تصريح عميد كلية علوم الإسكندرية – فى ذلك الحين – الدكتور محمد إبراهيم بعد زيارته للصحراء الجنوبية قائلاً : أستطيع أن أقرر أن الخطأ البالغ أن نفكر فى تنظيم النسل فى مصر ! . . إن هذه المنطقة تحتاج لاستثمارها إلى عدد من

السكان لا يقل عن حجم السكان المتزاحمين بالأكتاف على الرقعة الخضراء في وادى النيل !

(٦ ملايين فدان . .)

وانطلق رجال سلاح المهندسين وعلماء الصحارى والإصلاح الزراعى فى مغامرات رهيبة لكشف أسرار الصحراء الغربية شمالاً وجنوباً ، وبدأت الآبار العميقة تحفر بآلات التنقيب عن البترول . . وبدأ الماء العذب يتفجر من الأعماق بقوة يرتفع معها إلى ٣٥ قدما فوق سطح الأرض . . وبدأ إعداد الأرض للزراعة . . وأثبتت البحوث فى عام ١٩٦٠ وجود ثلاثة ملايين فدان صالحة للزراعة ، وثلاثة ملايين فدان تحتاج إلى بعض الجهود للإصلاح . . وأعلن أن الخزان الجوفى – كما قلت فى كتابى – يكفى ريّ هذه المساحات الصالحة للزراعة أكثر من خمسمائة عام . . وأكدت أبحاث التربة أنها طينية وأنها كانت مزروعة قبل الميلاد وبعد الميلاد بثلثمائة عام . . وأن الخزان الجوفى لم تصل إليه أية آبار حفرها الفراعنة أو الرومان أو الفرس الذين عاصروا ازدهار الزراعة والرخاء بتلك الأرض الطيبة التى تؤكد آثارها أنها كانت قاعدة حضارية حين كانت أوربا تعيش فى الكهوف أو فى الأحراج !

وفى أقل من ثلاثة أعوام – استطاعت هيئة تعمير الصحارى أن تهيئ للزراعة مليون فدان مضمونة الرى ، وأن تبنى القرى العشر القائمة الآن . . وأن تنشئ الطرق المرصوفة التى تصل بين قرى الصحراء

الجنوبية . . وأن تحيي موات الأمل فى أرض واسعة حرص الاستعمار الطويل على عزلها وإهمالها حتى لا تجد مصر حاجتها من الوفرة والرخاء !

كل ذلك وإذاعة إسرائيل وصحفها والإعلام الصهيونى كله يذيع الأنباء الكاذبة عن المشروع ولم أسلم من إذاعة تل أبيب التى أهدت لى بعض الأوسمة حين قالت : إننى أسهم فى هذه الأكذوبة الضخمة بكتاباتى عن الجنة الموهومة التى تريد حكومة البكباشى أن تخدع بها الشعب المصرى الجائع العريان !

ولعل من أعز الذكريات عندى أن كل الذين عرفتهم من رجال تعمير الصحارى فى مجاهل الصحارى كانوا يسخرون مما يسمعون ويقرءون عن الخرافات والأكاذيب التى كانت تروجها إسرائيل عن هذا المشروع . . ومضى الرجال فى طريقهم كالصواريخ إلى تحقيق معجزة قهر الصحراء وأشهد مسجلاً للتاريخ – قبل أن يضيع التاريخ – أن مشروع الوادى الجديد كما كانت تنفذه هيئة تعمير الصحارى بقيادة سلاح المهندسين قد صحبه التوفيق فى مرحلته الأولى كثمرة لإخلاص وجهد الرجال الذين شمروا عن سواعدهم ، وعرفوا الإمكانات المائية للخزان الجوفى ، وامتدت أذرعهم إلى كل شبر فى الصحراء ، يقسمونها للزراعة ، والتعدين ، والعمران ، من خلال ٨ محافظات كان مقرراً أن تنشأ على امتداد المسافة من البحر المتوسط حتى حدود السودان .

المؤامرة : الخزان الجوفى خرافة !

هنا على أرض الوادى الجديد أشرقت شمس الحياة من جديد ، بوعى الأحرار وإدراكهم بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو . .

وفجأة غربت الشمس !

وتعطل العمل فى مشروع الأمل !

وضربت المؤامرة العمل العظيم !

فتحول المشروع وهيئة تعمير الصحارى إلى مركز الأبحاث ! . .

ذلك هو الخطأ الذى وقعت فيه ثورة ٢٣ يوليو . .

وكانت وراء هذا الخطأ مؤامرة صهيونية استعمارية اشتركت فيها واشنطن وموسكو معاً على قدم المساواة . . ولكنّ كلتيهما كانت قفازاً لليد الصهيونية الخفية التى امتدت فى الظلام إلى قلب المشروع لتعصره بهدف أن يكف عن الخفقان والحركة ليندفع الدم قويًا فى أعراق مصر . .

لقد تعلمت الصهيونية فى مدرسة الاستعمار أن مصر لو ملكت وسائل الاستثمار الأدنى لكنوزها وثرواتها الطبيعية — لن تستطيع أن تقف فى وجهها قوة ، فكيف ترضى الصهيونية أن تتوفر الحياة لكل مصرى ، فيستقر ويقوى ، ويعتز بانتمائه ، وينطلق كالصاروخ إذا ما اعتدى على أرضه ؟ . . ذلك أمر يزعج الصهيونية أم إسرائيل على حدود مصر

الشرقية . . ومن هنا كانت الحملة الشرسة ضد المشروع وهو لا يزال فكرة ، واستمرت حملة التشكيك ، ولكن الحملة - كما قدمت - لم تؤثر فى العمل القائم على قدم وساق . .

عشرات الآبار العميقة تحفر وتضخ الماء ، الكهربا تمتد إلى مناطق الآبار ، القرى تقام حول الآبار ، الأرض تخضر ، الناس يعيشون فى رخاء!

كيف تسكت الصهيونية على هذا ؟ بل كيف تترك إسرائيل أمها تسكت على هذا ؟ .

لابد من وسيلة للفتك بالمشروع .. ولم تقدم الصهيونية الوسيلة . . دبرت فى الظلام المؤامرة وجعلتها فى قالب علمى ليكون طعما - بضم الطاء - يسهل بلعه . .

كان طبيعيا ألا يحتكر البحث العلمى المصرى وحده مقدرات هذا المشروع الكبير . فانفتح عقل المهندسين والخبراء فى مصر على عقول زملائهم فى الشرق وفى الغرب . . يطلبون المشورة والرأى ويفيدون بالخبرة . .

وهنا وقعت الواقعة . .

فجأة وفى عام ١٩٦٧

– عام الهزيمة فى الحرب – جاءت تقارير الخبراء فى أبحاث المياه الجوفية فى واشنطن وفى موسكو معاً وكأنهما على موعد .. جاءت التقارير بالمؤامرة تقول :

لا تعلقوا أية أهمية على الخزان الجوفى تحت الواحات المصرية الجنوبية . . إن هذا الخزان بعد حفر الآبار التجريبية قد برهن على أنه خرافة !

تلك هى الضربة الغادرة التى أصابت المشروع فى ظهره . . فتوقف عن العمل . . بل أصيب بالشلل .

وذهبت أسائل أحد كبار المسئولين عن تعمير الوادى الجديد : هل بين خبراء المياه الجوفية فى موسكو أو واشنطن علماء أو خبراء يهود ؟ . .

قال : يوجد طبعا . . ولكن ما هى علاقة ذلك بالتقارير العلمية ؟ . .

قلت : الله أعلم يا سيدى بهذه العلاقة . . بل هذا الطعم السام الذى بلعتموه ! . .

وعادت إلى ذهنى على الفور أصداء تلك الحملة الإعلامية الشرسة

ضد المشروع منذ أول لحظة لإعلانه . . لم نكترث للكلام والإعلام ! ولكن تكتيك الحملة كان قد تطور إلى عمل علمى لم يختلف عليه شرق أو غرب : لا ماء فى الخزان الجوفى .. إن التقديرات المائية الضخمة خرافة .

هكذا قال مركز أبحاث المياه الجوفية فى كل من موسكو وواشنطن . . وهكذا صدق الإفك بعض أعضاء مجلس الأمة فى ذلك الحين . . فطالب بعضهم بأن الاستمرار فى الإنفاق على المشروع استمرار فى الخطأ والإسراف !

وهذا كلام ظاهره الرحمة وباطنه العذاب .. عذاب الفشل والأخذ برأى أعداء حياتنا فى هذه الحياة .

وهكذا احتوت نكسة ٦٧ نكسة مشروع الوادى الجديد . . وحوكم المسئولون عن النكسة العسكرية وسيحكم عليهم التاريخ . . أما نكسة الوادى الجديد فلم يسأل عنها أحد !

ليس معنى ذلك أننى أطالب بمحاكمة المسئولين الأحياء أو الأموات عن إيقاف العمل فى الوادى الجديد . . عفا الله عما سلف ولكننى أدعو وأنبه إلى أن غزوة التصحيح للوادى الجديد سوف تتعرض لحملة إعلامية توشك أن تكون حرباً نفسية – كما يهاجم الانفتاح الاقتصادى الآن – حتى لا تحقق مصر أمنها الغذائى .. وحتى لا تنتشر مصر على اتساع أراضيها الغنية بالخيرات .. أبداً .. لن تستطيع الكلمة الخائنة أن تشغلنا

لحظة عن العمل من أجل مستقبل مصر.

فليس عيباً أن تخطئ الثورة فالثورة عمل ، ومن لا يعمل لا يخطئ . . ولكن العيب كل العيب هو استمرار الخطأ بغير تصحيح .

وهذا هو الموقف التاريخى للرئيس السادات مع الوادى الجديد .

ولابد للكلمة الأمينة هنا أن تسجل أن مشروع الوادى الجديد قد برئ من العلة فى مناخ أفضل . .

انتصار أكتوبر ٧٣ وقد مسح عار هزيمة يونية ٦٧ . . ثم مبادرة السلام التاريخية فى نوفمبر ٧٧ . . وبعد ذلك تأتى غزوة الوادى الجديد قاعدة للثورة الخضراء يقودها الرئيس السادات على كل شبر من أرض مصر الطيبة .

أمانة شباب أكتوبر

كلنا يذكر احتفال جامعة الإسكندرية بعيد الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٧٧ ، وكيف أحاط رئيس الجامعة وعمداؤها فى كلماتهم أمام الرئيس القائد محمد أنور السادات بقضايا الإنسان المصرى المعاصر . ورسم العلم منهج التقدم بعد النصر إلى غد أفضل ، يصيغه العقل المصرى والساعد المصرى ، بكل فكر مفتوح وجهد جبار لبناء مصر الحديثة على قواعد من العلم والإيمان والعمل والمحبة .

فقال الرئيس القائد فى كلمته : أشهد بأننا بهذا الاتجاه العلمى المخلص نحو بناء إنسان مصر الجديد بدأنا نعيش عصر النهضة .

وعهد الرئيس القائد بعد ذلك إلى خيرة علماء الجامعات فى مصر ، والعاملين منهم خارج مصر بكل المشروعات التى تضمنتها ورقة أكتوبر لبناء مصر الحديثة ابتداء ببناء الإنسان المصرى

وبذلك أصبح دور الجامعات – فى عصر النهضة – ليس مجرد تخريج الخريجين ، وإنما تجاوز ذلك إلى مشاركة المجتمع كله فى تدبير الحلول العلمية والعملية لمشاكله . . ويأتى فى الصدارة منها الآن توفير الطعام والمسكن فى برنامج زمنى غايته عام ١٩٨٠ ، على أن تكتمل خطة

الانطلاق بعد ذلك إلى حياة أكثر أمناً ورخاء وعدلا وقوة ، فهذه هى السمات الحقيقية لعصر النهضة . . هذا العصر الذى قامت تدق أبوابه الثورة الخضراء .

وقام يغزو الصحراء . . . .

ومنذ تولى الرئيس السادات أمر مصر ، وهو يدعو إلى إستراتيجية لحياة مصر تقوم على مبدأين :

١ – فلنجعل معركتنا من أجل تحرير الأرض نقطة انطلاق إلى البناء فى كل مجال .

٢ – اتجهوا إلى الصحراء . . فإن مستقبل مصر الحقيقى فى غزو الصحراء .

ولم يكذب الرائد أهله : كان كعهده صادق الوعد ، فحقق بشعبه النصر فى معركة التحرير ، وما توقفت فى عهده يوماً حركة البناء . ومن أجل أن يرتفع البناء – كما يريد الرجل – إلى السماء ، كانت مبادرته التاريخية من أجل السلام . .

ثم قام بغزو الصحراء يعلن الثورة الخضراء ، ليس فقط من أجل وقاية مصر شرور مجاعة زاحفة ، ولكن من أجل الوفرة التى تستطيع منها مصر أن تنقذ المنطقة من براثن تلك المجاعة ، بعد أن تعيش الرخاء .

فى اليوم الأول من أبريل ١٩٧٨ كانت غزوته للوادى الجديد . . وليست هذه الغزوة أقل أهمية من غزوة أكتوبر المجيد على أرض سيناء . . هذه الغزوة الجديدة إحدى ثمرات غزوة القدس وإعلان رسالة السلام باسم شعب مصر.

إن غزو الصحراء هو التجسيد الحى لكل معنى فى رسالة السلام . . فإن السلام الحقيق يبدأ بمركز الدعوة إليه ، وذلك يقضى بأن يسود مصر السلام الاجتماعى . . وهو فى أبسط مقدساته : طعام من جوع . . وأمن من خوف .

وأشرقت الشمس . .

هنا على أرض الوادى الجديد أشرقت الشمس من جديد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وعلمت قيادة هذه الثورة بإمكانات الرخاء الهائلة فى صحراء مصر الجنوبية والغربية ، وحشدت العقول والسواعد لزراعة وتعمير الوادى الجديد . .

وفجأة توقف هذا العمل الضخم . . أصيب مشروعه بطعنة غادرة من الخلف . . أصابته مؤامرة صهيونية لبست قفاز العلم ، وخنقت المشروع الوليد ودفنته فى بحر الرمال . . وتعطل العمل فى مشروع الأمل ١٤ عاما ، حتى أدركته عصا السادات السحرية لتبث فيه الحياة ، وتدفعه بقوة ثورة التصحيح تحت أعلام الثورة الخضراء إلى مستقبل مشرق سعيد .

أخطأت ثورة ٢٣ يوليو عندما حكمت على المشروع بالفشل . . فقامت ثورة التصحيح فى (١٥ مايو) لتصحح الخطأ ، غير ناظرة إلى محاسبة المتآمرين على المشروع ، وعفا الله عما سلف . . ولكن الثورة الخضراء منذ إعلانها – مسلحة بالوعى . . حذرة من الوقوع فى حبائل الحاقدين على مصر ، والعاملين دائماً على تجويع مصر ، حتى لا ينطلق المارد من القمقم . . وعادت شمس الحياة تشرق من جديد على الوادى

الجديد . . واستردت مصر بالثورة الخضراء اكتشافها لكنوز مصر . . ليس فى إمكانات الزرع والتعمير والتعدين والبترول فحسب . ولكن فى تنمية قدرات هذا الشعب على استئناف حضارته التى قامت فى قلب هذه الصحراء منذ سبعة الاف عام . . تتخاطب على امتدادها معابد وآثار المصريين القدماء فى سيوة ، والواحة الخارجة والبحرية ، والأقصر ، والجيزة ، وأسوان .

لقد شغل الأجداد كل مساحة مصر بالعمل والإنتاج للخلود . . وتركوا لنا حضارة تدعونا إلى أن نبنى كما كانت أوائلنا تبنى . . والبناء فى هذه المرة ليس من الحجر . . ولكنه بناء البشر . . بماذا ؟

لقد أجاب الرئيس السادات – وهو يفجر الثورة الخضراء – عن هذا السؤال بقوله :

« تعالوا نكتشف كنوز مصر فوق الرمال وتحت الماء . . لدينا إمكانات هائلة لتحقيق الرخاء . . لدينا الماء والأرض والشمس . . ولا نحتاج إلى أكثر من جهد الإنسان ! » .

وما أحوجنا إلى حملة إعلامية متصلة إلى اكتشاف الكنوز وتعبئة الجهود لاستثمار هذه الكنوز والثروات الموجودة فى :

١ – ٦ ملايين فدان صالحة للزراعة فى الوادى الجديد .

٢ – إمكانات البترول التى يعرفها خبراء البترول .

٣ – الثروات المعدنية على السطح ، وفى جوف الأرض التى تحتوى

أكبر خزان جوفى للماء العذب فى العالم ، ومن فوق هذا الخزان الكافى لرى هذه المساحات ألفى عام . . ومن تحته الفحم والحديد المقطوع بوجودهما وبكميات اقتصادية تثير غضب الحليم إذا لم نقم إليها نصنع مستقبل مصر!

ماذا عن الماء ؟

قال الرئيس السادات وهو يعطى إشارة البدء بزراعة ثلاثة أرباع مليون فدان فى واحة الفرافرة – أقصى واحاتنا الغربية – إننى أعتبر بئر الماء أهم من بئر بترول .. فحيثما يوجد الماء توجد الحياة ! .. وإن أمل مصر الكبير إنما هو فى زراعة الصحراء .

والسؤال بعد ذلك :

بماذا يقدر حجم الخزان الجوفى تحت الوادى الجديد ؟

يجيب عن ذلك العالم الجيولوجى الدكتور بول فى كتابه عن « الواحات الجنوبية المصرية » :

« ينبغى أن يكون مفهوماً أن هذا المخزن الهائل من المياه العذبة تحت واحات مصر الجنوبية لا صلة له مطلقاً بخرافة أن مياه الصحارى الجوفية هى رشح نهر النيل . . نعم هذه هى الحقيقة . . فإن طبقة الحجر الرملى النوبى الحاملة للمياه الجوفية تقع تحت الصحراء المصرية الغربية جمعاء ، وهى تختزن كمية عظيمة من الماء ، هذه الطبقة ذات مسام إسفنجية مغطاة من أعلاها ومن أسفلها – يا قدرة الله – بطبقة صماء لا يتسرب منها الماء ، وتتغذى هذه الطبقة الحاملة للمياه من مصدر مرتفع ينحدر من إقليم المستنقعات بأعالى النيل ومناطق الأمطار بدار فور وسلسلة

جبال آردى وغيدى فى الهضبة الاستوائية ، ولا يغيب عن البال أن كمية المياه المحفوظة فى هذا الخزان هى رصيد تجمعها منذ مئات الألوف من السنين . . وهى المدة الكافية لكى تتشبع بها الطبقة الهائلة من الحجر الرملى النوبى . . حتى إذا انقطع المدد الأصلى من المياه زمناً – وذلك لن يكون أبداً – فإن تأثير بضع مئات من الآبار العميقة يتدفق من كل منها خمسون ألف متر مكعب يومياً من الماء العذب لا يكاد يذكر بالنسبة لحجم الخزان الجوفى ، حتى لو استمر الماء يتدفق بلا انقطاع لمدة ألف عام » .

بقى أن نقول : إن هذا الكتاب لذلك العالم الجيولوجى الإنجليزى دكتور بول قد طبع فى عام ١٩١٨ ، ونحن نعيد تسجيل هذا بعد ٦٠ عاماً من تقرير ذلك الخبير الذى يؤيده خبير إنجليزى آخر هو الدكتور بيدنل الذى يقول فى كتابه المطبوع عام ١٩٢١ باسم الواحات الخارجة :

« إن كمية المياه التى تتفجر من عيون الواحات الخارجة كلها من مصادر سطحية ، فإن فى أعماق هذه المنطقة خزاناً من المياه الجوفية لابد من مضى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة حتى يمكن استنزاف المياه المحفوظة فى طبقة الأحجار النوبية التى تحت منخفض الواحات ودون حساب للمساحات الهائلة الكامنة من هذه الأحجار تحت الصحارى المحيطة بالواحات » .

وحديث هذين العالمين هنا لا شأن له ولا صلة بأى حديث عن الآبار الفرعونية – وتسمى زورا بالرومانية – الظاهرة على سطح الأرض ، ولكن حديث العالمين هنا عن خزان الأعماق . . هذا الذى قال عنه الرئيس السادات إنه يحتوى من الماء ما يعادل حجم مياه النيل فى خزان بحيرة السد العالى ألوف الأمثال .

وبمثل هذا التقرير اعترف خبراء المياه الجوفية لمشروع النقطة الرابعة الأمريكية فى عام ١٩٥٤ ، عندما قاموا بحفر عشر آبار تجريبية عميقة لرى وزراعة مساحة عشرة آلاف فدان فقط ، لكى يجد سكان الواحات أقواتهم الضرورية بدلاً من انتظار معونة العربان التى تصرفها الدولة من الدقيق ! . .

فى ذلك الحين كان الخزان الجوفى هائلاً ، أما بعد حرب السويس . . وبعد تدهور العلاقات المصرية الأمريكية – من أجل سواد عيون إسرائيل – وبعد إعلان قيام مصر ببناء السد العالى وإنشاء الوادى الجديد . . فقد تراجع خبراء المياه الجوفية فى المركز القومى بواشنطن عن إجماعهم السابق ، وقرروا أن هذا الخزان خرافة ! ولأسباب – لا أدريها – التقط المسئولون عن تعمير الصحراء الطعم ، وخاصة بعد أن جاءهم من موسكو تقرير فنى مطابق لوجهة نظر المركز القومى لأبحاث المياه الجوفية فى واشنطن ، وكان ذلك فى عام ١٩٦٤ ، حينما سألت المختصين فى تعمير الصحارى :

هل بين خبراء المياه الجوفية فى موسكو وواشنطن خبراء يهود ؟

قالوا : ربما . . وليس الشأن أن ننظر فى أديان الخبراء . . شأننا أن نعرف حجم خزان جوفى للماء . .

فشكرت لهم حسن الظن . . وبح صوتى فى اتهام هذه التقارير بأنها مدسوسة على المشروع . . ولكن صوتى ذهب أدراج الرياح . . لأن المؤامرة كان مقرراً لها أن تسبق هزيمة يونية ١٩٦٧ .

ماذا عن الأرض ؟ . .

وبمحو عار هزيمة يونية ٦٧ ، وبانتصار أكتوبر ٧٣ – كان طبيعيا أن تسرى روح أكتوبر وتنتشر على اتساع كل شبر فى أرض مصر ، من أجل « تحويل اللون الأصفر إلى اللون الأخضر الذى يحمل ثناياه للخير والرخاء » .

وكانت غزوة الرئيس السادات للوادى الجديد تعبيراً – أبلغ ما يكون التعبير – عن أن حرية إرادة مصر تضع أمامها فى الرؤية الواضحة كل إمكاناتها فى خدمة الإنسان المصرى ، دون الاستماع إلى نصيحة مضادة ولو لبست مسوح العلم . . وإن لنا فى خبراتنا من علماء مصر ما يكفينا أن نخطو على أرضنا ونحن نعرف طريقنا ولا سبيل إلى خديعتنا مرة أخرى . .

فإن الثورة الخضراء لم تعلن إلا بعد بحث . . وعلم . ، ويقين أيضاً من الإمكانات الهائلة لنجاح مشروعات الأمن الغذائى .

والسؤال بعد ذلك عن إمكانات الأرض الصالحة للزراعة فى الوادى الجديد ؟ . .

أكثرت تقارير خبراء أبحاث التربة أن سهول الوادى الجديد المنبسطة ، والتى تؤكد سابق زراعتها فى التاريخ القديم ، تبلغ ثلاثة ملايين فدان على الأقل . . وهناك ثلاثة ملايين فدان أخرى على المستوى نفسه من الصلاحية للزراعة ولكن بعد جهد فى الإصلاح . .

على هذا الأساس كان التخطيط لمشروع الوادى الجديد على أنه سيتكون من ثمانى محافظات ، فالمساحة القابلة للزراعة تعادل المساحة المزروعة فى وادى النيل نفسها .

وقد أثبتت تقارير خبراء تعمير الصحارى المصريين أن الخزان الجوفى تحت الوادى الجديد يكفى رىّ وزراعة ثلاثة ملايين فدان ، والملايين الثلاثة الأخرى يمكن التوسع فيها بمياه السد العالى ، عن طريق مفيض قديم للنيل كما تقدم .

وأرانى هنا غير ملتزم بالكلمة الأمينة ، إذا لم أطالب بالرجوع إلى التقارير المخلصة لهيئة تعمير الصحارى المصرية ، فإنها تحوى من الحقائق ما يجسم الأمل العريض فى إنشاء مجتمع عشرة ملايين فى الوادى الجديد .

الوقت لا ينتظر . .

الأهم الآن هو أن الثورة الخضراء يتدارسها علماء الجامعات ، وعلى التحديد جامعة القاهرة ، وقد أعلنوا منذ أيام أنه يتحتم على مصر الآن أن تقوم بزراعة ٦ ملايين فدان ، وإلا تعرضت لمجاعة سنة ٢٠٠٠ .

وقد جاء – وأنا أكتب هذا التحقيق – أن أكاديمية البحث العلمى قد جمعت نخبة ممتازة من علماء جامعات القاهرة وأسيوط وعين شمس والمنصورة والزقازيق وذهبت لتقيم أول مركز علمى فى الخارجة عاصمة الوادى الجديد ، ليست مهمته البحث ، وإنما مهمته تقديم أحدث البحوث التطبيقية فى عمليات التنمية على الأرض الصحراوية . . لكى تتحول إلى أعمال تحمل فى ثناياها الخير والرخاء تحقيقًا لأهداف الثورة الخضراء .

السرعة قوة . .

أعود فأكرر أن مفجر الثورة الخضراء لم يقم بغزو الصحراء قدم ثابتة ويقين علمى بأن الأمل المصرى الوحيد فى الصحراء الأخص فى الوادى الجديد .

نذكر فى هذا المقام العالم المصرى الدكتور فاروق الباز خبير ـ الأرض والقمر وأبحاث الفضاء وما قدمه فى لقاءات مضيئة مع القائد أنور السادات من براهين ساطعة على أن فى أرضنا من والثروات الظاهرة والمطمورة ، ما يحقق لنا مستقبلا رائعاً فى مجال الغذائى ، وفى احتواء الانفجار السكانى ، وفى استثمار والبترول . . وها هم أولاء علماؤنا فى الجامعات يخططون ما ـ يكون . .

وهنا يلح سؤال :

متى يجب أن يكون . . متى نرى العمل بعد بزوغ الأمل

إن مطالب وأحداث الحياة وتحدياتها من حولنا تصيح أسرعوا . . فإن السرعة قوة . . ومادام الأمر يعنى الثورة الخضرا لابد من أن يقوم على تحقيقها ثوار . .

فأى نوع يكون هؤلاء الثوار ؟

الجواب عند الطليعة التى قامت فى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يوم التقى شعب مصر بموعد مع القدر . .

وعند البواسل الذين صححوا مسيرة ثورة يوليو فى ١٥ مايو ١٩٧١ .

وعند المنتصرين الذين زلزلوا الدنيا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . . .

إنهم شباب الجيش . . ليس غيرهم من يحمل لواء الثورة الخضراء ، ويقهر الصحراء . . فيزرعها ويملكها . . ويقيم على الأرض التى أحياها من عدم .

وإننى بذلك لا أخترع نظاما للعمل . . ولكنى أطالب بتطبيق قانون الخدمة العسكرية والوطنية . . إنه ينص على حق مجلس الوزراء فى أن يصدر قرارات بتأليف كتائب الخدمة الوطنية من الشباب الزائدين على حاجة القوات المسلحة لتنفيذ المشروعات القومية .

وتقتضينى الكلمة الأمينة ، أن أسجل أن أى تنظيم لتحقيق الثورة الخضراء لا يقوم على غير طريقة أكتوبر لن يكتب له النجاح . . فلنختصر الزمن . . إن الوقت لا ينتظر . .

العلم هو المصباح الذى يضىء لنا الطريق ، وشباب أكتوبر هو صاحب المستقبل ، فلنعبئه تعبئة تجعله سباقا إلى هذه الجنة المهجورة يعمرها ويعيش ونعيش معه بخيراتها أكرم حياة .

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د. فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د. زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د. محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د. توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د. محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د. عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د. أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د. مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د. نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د. محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د. أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د. محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د. سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د. مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد

٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف
٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د. أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د. سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د. إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د. على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الاجتماع	د. فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د. كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د. يوسف عبد المجيد فايد
٣١م– محمود حسن اسماعيل	د. عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د. مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة الى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د. خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د. الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية
٤٢ – اللغة الفارسية	د. محمد نور الدين عبد المنعم

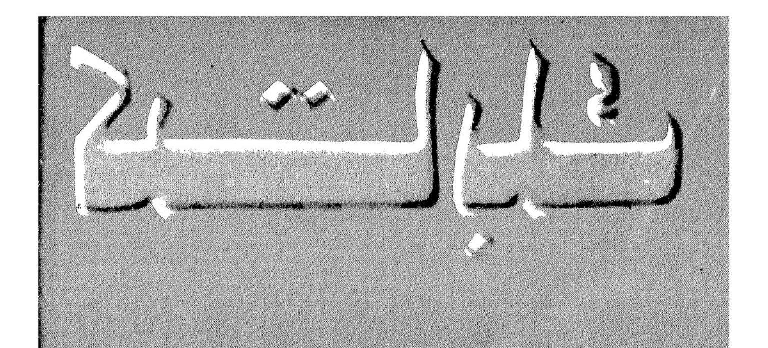
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د . عبد المنعم النمر
٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلى
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د حسين عمر
٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د . عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسى	د . عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د . حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعى	د . فوزية فهيم
٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوق أمين
٥٣ – مرض السكر	د . أحمد غريب
٥٤ – شوق أمير الشعراء .. لماذا ؟	فتحى سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د . أحمد عاطف العراق
٥٦ – الشعر فى المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د . عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	على شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د . فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د . إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية فى الأدب الفرنسى	د . أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ – التعبيرية فى الفن التشكيلى	د . نعيم عطية
٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر

١١٢ – الفن والمرأة	شريفة فتحى
١١٣ – نظام الحكم فى الإسلام	د مصطفى كمال وصفى
١١٤ – رحلتى مع الرواية	فتحى أبو الفضل
١١٥ – التطـــور	د . منى فريد
١١٦ – الأدب والمواطن	عباس حضر
١١٧ – آفاق جديدة فى التعليم	د طلعت حسن
١١٨ – الفن القبطى	د باهور لبيب
١١٩ – اجتماعيات التنمية	د محمود الكردى
١٢٠ – المسرح الشامل	أحمد زكى
١٢١ – رسائل إخوان الصفا	د على السكرى
١٢٢ – الرمزية الصوفية فى القرآن	د . سيد عبد التواب
١٢٣ – الحب فى الشعر الفارسى	د عفاف زيدان
١٢٤ – الإنسان والعـــلم	د . عبد العزيز أمين
١٢٥ – نظرات فى القصة القصيرة	حسن القبانى
١٢٦ – الفراعنة أساطين الطب	محمد عبد الحميد بسيونى
١٢٧ – كهـــف الحكيم	فتحى العشرى
١٢٨ – فنون الزجل	محمد قنديل البقلى
١٢٩ – للألبان فلسفة وأسرار	د مصطفى الديوانى
١٣٠ – الدراما اليونانية	كمال ممدوح حمدى
١٣١ – الأسرة فى الدين والحياة	المستشار محمد عبد الفتاح الشهاوى
١٣٢ – الأدب والحضارة	د . نعمات أحمد فؤاد
١٣٣ – الجراحة علم وفن	د . عوض الدحة
١٣٤ – علم النفس والجريمة	المستشار محمد فتحى
١٣٥ – فن المقال الصحفى	د عبد العزيز شرف

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢١١٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٤٧ – ٩

١/٧٨/٤٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هــذا الكتـاب

تستطيع مصر أن تحمل أعباء رسالة السلام حين تتجه إلى الصحراء والنيل والشمس بكامل جهدها وطاقتها . .

وهذا كتاب يسير مع الثورة الخضراء منذ كانت مصر على خريطة العالم حتى العصر الحديث . يؤكد تلك المسيرة العظيمة . . من أجل السلام والحياة . .